

الحفظ

للأستاذ زكي المهندس
عميد كلية دار العلوم

سيداتي . سادتي :

الحفظ والجد والسند والنحس كلمات يتداولها الناس فيما بينهم في كل زمان ومكان ، فالناس جميعا يؤمنون بالحفظ ويمتنونه وأنا كذلك أو من بالحفظ وأتمناه ولكن دائرة الحفظ عندي دائرة ضيقة محدودة لا تتجاوز تلك الظروف والأحداث التي لا سلطان لي عليها ولا قبل لي بتغييرها .

فلا شك أن في حياة كل منا تقع أمور وأحداث يخيل إليه أنها تجري على غير قياس وتشذ عن كل قاعدة . وهي تؤثر في حياتنا فتجلب لنا خيرا أو تدفع عنا شرا أو تحرمنا ما نشتهي أو تسوق إلينا ما نكره .

فطالب يموت عائلته وشوقي مستصعب المرحلة الدراسية فتضطره ظروف العيش وتكاليف الحياة إلى الانقطاع عن دراسته ليعول نفسه وأسرته . ورجل معدم يساق إليه على غير انتظار ميراث من قريب موصر يموت ولا وارث له سواه . وفلاح ما يكاد يدهم زروعه ويؤتي ثمره حتى تهطل عليه الأمطار فتفسد من محصوله وتضيع عليه جهوده . ورجل فقير يرشح الجائزة الأولى في سباق الدربي أو المؤامسة أو مبرة محمد على الكبير فيصبح بين عشية وضحاها من ذوى الجاه واليسار ، وموظف من ذوى الكفاية لا يكاد يرشح لارتقية إلى وظيفة يعرض عليها حتى تستقبل الوزارة فيظل على حاله بضع سنوات أخرى .

هذه الحالات وأشباهاها قد تقع لنا أو تجرى حولنا وبمراى منا من غير أن يكون لنا يد فيها أو طاقة على اجتذابها إلينا أو دفعها عنا . فإنا كنا لندفع موتا أو نمنع مطرا أو نرد قضاء أو نكيف الأحداث الميسابية على ما نشتهي ونحب ، هذا هو ما يجب أن نسميه بالحفظ أو الجلد أو القدر أو ما شئتم أن تسموه .

وما يقع للأفراد من هذا قد يقع للأمم ، فإن للأمم — كما للأفراد — حظوظها وجدودها ، وفي التاريخ القديم والحديث أحداث من هذا النوع طبيعية وسياسية قد غيرت رجة العالم وحوادث مجرى التاريخ .

وعلى هذا يجب أن ندرك أن الحوادث التي يلعب فيها الحظ دوره ليست الا حوادث محدودة - لا قدرة لنا عن توجيهها أو التأثير فيها . هي تلك الحوادث التي تعد في حياتنا نوادر ومستثنيات أو شواذ لا يمكن الاعتماد عليها ولا يجوز أن نتخذ منها قاعدة لأعمالنا وحياتنا . فإذا يكون مصير الرجل التقير إذا قعد عن العمل انتظارا لميراث قد يهبط عليه من السماء أو كثر نجوء يقفز اليه من جوف الأرض ؟ وماذا تكون نهاية الطالب الذي يهمل في دروسه توغلا للنجاح عن طريق البعادة والحظ ؟ وأي مستقبل لموظف - أيا كانت كفايته العلمية - إذا أهمل في عمله ترقبا لقيام وزارة يكون له فيها عضد وظهير ؟

أما الجهلة من الناس هم الذين يقولون في معنى الحظ حتى ينسبون كل أمر في حياتهم إلى قوة خفية عليهم خارجة عنهم فهم يؤمنون بأن نجاح المرء أو فشله يرجع حتما إلى حظه الباسم أو جده العاتروهم يحاولون أن يبرهنوا لك على صدق اعتقادهم بحوادث وقصص هي من نسج خيالهم أو مما يسيثون فهمه وتأويله .

هؤلاء هم الجهلة المغرورون الذين يحاولون أن يخفوا صيهم وتقائصهم تحت ثياب تلك الفتاة المعصومة العينين التي تصيب من تشاء وتخطىء من تشاء بغير حساب .

إن فهم الحظ على هذه الصورة من شأنه أن يفتك بنشاطنا ويعظم من عزائمنا . إن الحياة الانسانية منطوقة أكثر مما تنصور . من حياة المرء ليست مجموعة من الحظوظ والمصادفات تجري على غير نظام وتشذ على كل قانون . بل أنها - ككل شيء في الوجود - خاضعة لنظام ثابت ونواميس مقررة . أجل أن حياتنا من صنع أيدينا أنها مجموع أعمالنا وأفكارنا وعواطفنا . أننا نستطيع أن ندبر حياتنا على ما نشئ ونكيفها على ما نحب ، ولنا صرتين في هذا بطالم أو قوة خفية لا تدركها أفهامنا وإنما نحن الذين يحملون تلك العصا السحرية نخاق بها دنيانا كما نريد أن تكون . أن سعادتنا أو شقاءنا ليست في الكواكب سعودها ونحوسها وإنما هي فينا ومنا والينا فالنشاط والجد والعزم والمثابرة والجلد هي سر النجاح وأضدادها هي علة الفشل .

هل منا من يرتاب في أن النار تحرقنا إذا لمسناها ، وأن البكين يجرحنا إذا جربناه في جسمنا ، وإنا في الغذاء الصالح استدامة للصحة ومبعثا للقوة ، وأن الهواء ضروري لحياتنا ، وأن الكهرباء تولد الضوء والحرارة وأن الشمس والتمريجريان على نظام ثابت مطرد لا يشذ ولا يتخلف " لا الشمس ينبت لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " فإذا لم يداخلنا الريب في هذه الظواهر فماذا يربنا في أن تكون أعمال المرء وساو كه خاضعة كذلك لتانون مطرد ثابت ؟

حقاً ؛ أيتها السيدات والسادة - أن حياة المرء الأدبية خاضعة - ككل شيء -
لتانون العلة والمعامل والسبب والمسبب وأن نجاح المرء أو فشله هو كصحته أو مرضه ،
له أسبابه وعالله وأن قولنا (النجاح وليد العمل والفشل حليف الكسل) هو حكم أدبي
ولكنه لا يقل في قوته وسدقه وشموله عن قولنا (الحرارة تمدد المعادن) .

إن صفاتنا الأدبية هي كل شيء في الحياة فإذا ضعفت هذه الصفات أو انتسخت
فلا رجاء في حاضر ولا أمل في مستقبل. هذا هو التانون الطبيعي. وما يسميه سواد الناس
حظاً أو سعداً أو نجحاً ليس إلا منا وقينا .

نميب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
ونشكو دهرنا من غير ذنب ولو نطق الزمان بنا هجانا

يقول (جيته) أن تسعة أعشار العقبرية والنبوغ ليست إلا ثمرة الجهد والنشاط والمثابرة
ولكن البله هم الذين لا يؤمنون بأن النجاح والجهد متلازمان .

ويقول الدكتور (جنسن) المؤلف الانجليزي المشهور أن شكوى الناس من سوء
الحظ ومن الدهر ظلم فاني لم أعرف رجلاً نشيطاً مجتهداً يخيب في مسعاه فمن يفشل في عمل
من أعماله فلا يلومن إلا نفسه .

ويقول (أدسن) المخترع الأمريكي المعروف "هناك قوم يؤمنون بأن الحظ يناوئهم
فهم لا يتفكرون يندبون سوء حظهم في الحياة ويعيشون لذلك في فاقة وبؤس ولكني لم
أر فيا رأيت رجلاً حسن الأخلاق سليم العادات مجداً في عمله حازماً في شئونه قد شكاً من
سوء الحظ" .

هذه - أيها السادة - أقوال رجال من ذوى العلم والتجربة يعملون الجهد والمثابرة
وسلامة الخلق العمل الأولى للنجاح في الحياة .

إن الأعمال التي رفعت من شأن الإنسانية لم تكن وليدة الحظ ولا المصادفة فليس
الحظ هو الذي أخرج لنا (الألباظة) لوسر وهملت وشكسبير . وليس الحظ هو الذي
أخرج لنا ذلك الشعر الخالد لتنتي أو كتاب الأغاني للأصهباني أو الحيوان لإباحظ .

وليس الحظ هو الذي منح (أدسن) مصباحه الكمبرباني و (استيفنسن) آتته البخارية
وما كان لخط أن يبعث في أرض النلاح المجد النشيط محلاً وجداباً قولا في أرض الكسلان
الحامل نماء وخصباً . وما كان الحظ ليرفع من شأن الرذائل ويحط من قيمة الفضائل
وحول العالم الى فوضى ويحعل من النظام خرافة .

كثيرا ما قيل لنا أن بعض المستكشفات العظيمة كانت وليدة الحظ والمصادفة ، فقد أوحى سقوط تفاحة الى (نيوتن) قانون الجاذبية . وقد ألهم (فرانكلن) وحيده البرق والكهرباء بسبب ملاحظة عرضية لصاعقة من السحابة . ولم يفكر (جيمس وات) في استخدام البخار الا بعد أن أرى عفرا غطاء قدير يدنو ويهبط ، ولم يعمل (جاليليو) الى فكرة قياس الزمن بتداول الساعة الا حين رأى التسديل في كنيسة (بيزا) يتأرجح ويتذبذب .

لقد قيل لنا هذا وكثير مثله لنؤمن بان بعض الأعمال العظيمة التي زادت في رخاء الانسان وسعادته انما كان منبتها الحظ والمصادفة وقد يكون هذا حقا ولكننا لا نسدنا الا أن نجزم بان الفكر المبدئية الأولى لهذه المستنبطات العظيمة كانت حتما تحتاج في نفوس هؤلاء الأبطال وتشغل عقولهم ثم جاءت تلك الملاحظات العرضية - إن صح أنها وقعت - تحافزا لهم على التفكير هاديا لهم في أساليب البحث . ولم رأى آلاف الملايين من الناس قبلهم غطاء يعاوي ويهبط وتفاحات تنفج قنشق وقنابل تتأرجح وتهتر وصواعق تضرب في الفضاء فلم يحرك هذا من عقولهم ولا أثار شيئا في أخیلتهم .

أجل - سيداتي سادتي - أن للطبيعة طرقا عجيبية في اخفاء أسرارها عنا وكثيرا ما تكون هذه الأسرار في تناول أيدينا لا يحجبها عنا سوى (عود من القش) ولكن يجب ألا ننسى أن ارتفاع هذا (العود) هو كل شيء ، وأنه يحتاج الى أكثر من مجرد وحي أو الهام .

ثم هب أن بعض هذه المبتكرات العظيمة كانت وليدة الحظ والاتفاق فهل كان من الممكن أن يصل بها الانسان الى تلك النتائج الباهرة التي أثارته للعالم طريق الحياة وزادت في سعادته واطمئنانه لو لم يقترن ذلك بعزائم ماضية وجهود مستمرة مضنية وتضحيات عظيمة .

ماذا كان يفيد العالم من مجرد فكرة يوحى بها الى (نيوتن) أو إلهام يلهمه (فرانكلن) أو ملاحظة عرضية تقع عليها عين (جيمس وات) إذا لم يبذل كل منهم عقله وقلبه في تحقيق فكرته ؟ كيف كان العالم يصل الى قانون الجاذبية وقياس الزمن والمركبة البخارية إذا قنع هؤلاء الأبطال بملاحظاتهم العرضية وظلت الفكرة فكرة الوحي وحيا والإلهام إلهاما ؟

سيداتي ، سادتي -

إذا أبتهم إلا أن تعدوا النجاح الذي صادفه بمض هؤلاء المخترعين في أعمالهم من قبيل (الحظ) فقد أضغتم الى (الحظ) معنى أسمى وأثمل وبهذا يكون الحظ هو (التوفيق)

في العمل ويصبح بهذا المعنى وليد التعب والعناء والمشقة وبذل الجهد والصبر . نعم يصبح (الحظ) على هذه الصورة نهاية لا بداية وتابعا لا متبوعا فالاجتهاد والمثابرة والعزم هي التي تجلب (الحظ) وإن شئت فقولوا إن تلك الصفات الأدبية هي التي تقى المرء سوء الحظ .

أما الحظ كما يفهمه سراد الناس فالاعتماد عليه شجيرة لهفافة والبؤس والكسب إنهم يترقبون من الحظ ثروة ولكن العمل هو الذي يضع أساس الثروة . انهم يعتمدون على المصادفة ولكن العمل يعتمد على القوة والخلق والمثابرة والجهد .

سيداتي ، سادتي

إن حياتنا الجديدة في مصر حياة جد وعمل . حياة جلال وكفاح . حياة تآبي الحظوظ والمصادفات وتنفر منها . إن (الحظ) في حياة القرن العشرين لا يعني أكثر من الجهد والعزم واغتنام الفرص وتوجيهها التوجيه الصالح المثمر . إن من الواجب أن نستبعد (الحظ) من حياتنا ونسقطه من حسابنا وأن نؤمن إيمانا قويا صادقا بأن الحظ والجهد والسعود والنحوس كما يفهمها عامة الناس — هي ألباط لا وجود لها إلا في معاجم البله الضعاف .

زكي المهندس

عميد كلية دار العلوم

فؤادك خفاق وبرقك خافق وأعيالك في الدنيا خليل موافق
تخير ! فلما : وحدة مثل ميتة وإماما جليس في الحياة منافق !